د. جوني منصور*

تصريح بلفور.الخطوة الأولى نحو بناء دولة يهودية وظيفية في الشرق الأوسط

يصادف يوم ٢ تشرين الثاني ٢٠٠٧ مرور تسعين عاماً على صدور وعد بلفور الذي مكن الحركة الصهيونية من ترسيخ أقدامها وإقامة مؤسسات الدولة حتى العام ١٩٤٨. ونظراً لأهميته التاريخية نستعرض فيما يلي ملابسات صدور هذا التصريح ونعرض نصه وتحليله ومضاعفاته.

لم يكن إصدار تصريح بلفور بالحدث الهامشي في سيرورة الصراع الصهيوني.العربي/الفلسطيني، خاصة في النصف الأول من القرن العشرين. كان الإعلان عن هذا التصريح بمثابة نقطة تحول مركزية في رفع مستوى التعامل مع المسألة اليهودية في المحافل السياسية والاجتماعية الاوروبية. أضف إلى أن إصدار التصريح كان مفترقا مركزيا في تاريخ الحركة الصهيونية كحركة قومية يهودية معاصرة لعبت دورا رئيسا في صقل شخصية المجتمع اليهودي في أنحاء العالم، ضمن مركبات شعب يسعى إلى بناء دولة له في أي مكان على وجه هذه البسيطة، وفقا لتطلعات هرتسل مؤسس الحركة الصهيونية وأحد آبائها المركزيين.

وجاءت عملية إصدار تصريح بلفور ضمن مشروع صهيوني كبير ومركب لضمان إقامة وطن قومي يهودي وجمع شتات اليهود من كافة أنحاء العالم، وتطابقت الرؤيا الصهيونية وتطلعاتها مع تطلعات الحركة الاستعمارية الكولونيالية في القرن التاسع عشر ومطلع العشرين المؤسسة على رسالة الإنسان الأبيض ودوره في الحفاظ على الإنسانية، من خلال بسط سيطرته على مناطق شاسعة من العالم المتخلف. فاتفقت الرؤيتان الصهيونية والكولونيالية الاوروبية في هذا التطلع الأساس، وشكل اليهود مصدرا بشريا

*باحث، ومحاضر في كلية بيت بيرل

ولعب هربرت صموئيل دورا بارزا في تحريك موضوع الدولة اليهودية الموالية لبريطانيا في فلسطين فور تعيينه وزيرا في الحكومة البريطانية. وصموئيل هذا هو بريطاني يهودي متعاطف مع التطلعات والرؤى الصهيونية. وأجرى صموئيل هذا سلسلة من المباحثات مع وايزمان في نهاية العام ١٩١٤ أثناء اشتعال نيران الحرب العالمية الأولى. وجاءت خطوات صموئيل جراء اقتناعه بالدور الذي من الممكن أن تلعبه الحركة الصهيونية والشعب اليهودي في منطقة الشرق الأوسط بما يتوافق والسياسة الكولونيالية البريطانية في هذه المنطقة.

جيدا لاستثماره في تطبيق الفكر الكولونيالي في منطقة الشرق الأوسط مدعمًا بالعقيدة الدينية والتاريخية الخاصة باليهود، ألا وهي أن هذا الشعب - اليهودي - عائد إلى أرض آبائه وأجداده بعد نفي قسري عنها طيلة ألفي عام تقريبا.

فمن هنا التقت المصالح البريطانية الكولونيالية مع المصالح السياسية والعقيدية الصهيونية في فلسطين، نواة الشرق الأوسط. فاليهود سيخدمون دون أدنى شك هذه الرؤيا وهذه التطلعات، وبالمقابل سيوفر لهم الانكليز حماية عسكرية وغطاءً سياسيا لتحقيق المشروع الصهيوني في إقامة دولة يهودية في فلسطين "الخالية من السكان".

وكانت الحركة الصهيونية عبر عدد من رجالاتها وقياداتها قد دخلت في مسلسل من المفاوضات المكثفة عبر عقود طويلة قبل صدور التصريح، وتمثلت هذه المفاوضات بطرح سلسلة من اقتراحات لمشاريع توطين يهود وإقامة ما يشبه كياناً سياسياً برعاية بريطانيا، إلى أن نضجت الفكرة أخيرا وتمخض عنها تصريح يحمل اسم وزير خارجية بريطانيا في ذلك الوقت بلفور، وذلك في الثاني من تشرين الثاني عام ١٩١٧.

بلفور

• الأحداث التمهيدية لإصدار تصريح بلفور

حاول زعماء الصهيونية الحفاظ على الحياد عشية وخلال الحرب العالمية الأولى وذلك من خلال الامتناع عن اتخاذ أي موقف مؤيد أو معارض للحلفاء أو لدول المركز وذلك بسبب انتشار الجاليات والمراكز اليهودية في دول هذين التحالفين. ولم تكن هذه المهمة بالسهلة على قيادة المنظمة الصهيونية، إذ أن المقر الرئيسي للمنظمة كائن في برلين، وان نفوذ ومصالح عدد كبير من الصهيونيين منتشرة في كل من روسيا والمانيا وبريطانيا وفرنسا واميركا والنمسا، وهذه الدول في حالة حرب. إلا أن مساعي حاييم وايزمان أحد آباء الصهيونية ومن قياداتها البارزين كانت تميل إلى نيل دعم بريطانيا لمطالب الحركة الصهيونية، وبالمقابل توفر الحركة الصهيونية تأييدها لبريطانيا في حربها ضد دول المركز (المانيا والنمسا وتركيا)[1] وعندها سيدرك الأعضاء اليهود في هذه الدول أهمية هذا التأييد. بمعنى آخر أدرك وايزمان أن السياسة البريطانية واستراتيجيتها هي الضمانة الكافية لتحقيق ما تخطط له الحركة الصهيونية.

لقد وقع صراع مرير بين قياديي المنظمة الصهيونية في برلين (كان مقر المنظمة فيها إلى حين نقله إلى كوبنهاغن مع اندلاع الحرب العالمية الاولى لحياد الدانمارك) الذين كانوا من الموالين لالمانيا، واعتقدوا أن مساهمتهم في دعمها ومساهمة الحكومة الالمانية في دعم مشروعهم الصهيوني يخدم الأغراض الاستعمارية الالمانية. أضف إلى ذلك أن الصهيونيين الالمان لم يكونوا على قناعة تامة بسقوط تركيا. أما الصهيونيون في الدول الحليفة فلم يكن بمقدورهم القيام بمفاوضات

وتناولت الصحافة البريطانية مسألة الخطر الكامن في إمكانية نجاح المانيا في السيطرة على مفاتيح الشرق الأوسط وبالتالي إلى إقامة دولة عازلة في فلسطين تحت سيطرتها، ما سيعيق المشروع الكولونيالي البريطاني. وطرحت هذه الصحافة أهمية جعل الشعب اليهودي شريكا في تنفيذ مشروع السيطرة على فلسطين.

مع الحلفاء إلا على أساس استعدادهم نسف المنظمة الصهيونية الدولية.. وفعلا تحطمت المنظمة ...وعمل وايزمان والصهيونيون الاميركيون في عزلة عن مقر المنظمة في كوبنهاغن.[٢]

وفور الإعلان عن الحرب العالمية الأولى أعلن رئيس حكومة بريطانيا اسكويث أن من بين أهداف حكومته ضمان تقسيم الدولة العثمانية، وان لحكومته مصالح كبرى في إنشاء دولة يهودية في فلسطين تعمل .أي هذه الدولة العتيدة. على حماية الحدود مع مصر (شكلت مصر منطقة حيوية بالنسبة للرؤيا الكولونيالية البريطانية لوقوع قناة السويس فيها كأهم معبر مائي في العالم). ولعب هربرت صموئيل دورا بارزا في تحريك موضوع الدولة اليهودية الموالية لبريطانيا في فلسطين فور تعيينه وزيرا في الحكومة البريطانية. وصموئيل هذا هو بريطاني يهودي متعاطف مع التطلعات والرؤى الصهيونية. وأجرى صموئيل هذا سلسلة من المباحثات مع وايزمان في نهاية العام ١٩١٤ أثناء اشتعال نيران الحرب العالمية الأولى. وجاءت خطوات صموئيل جراء اقتناعه بالدور الذي من الممكن أن تلعبه الحركة الصهيونية والشعب اليهودي في منطقة الشرق الأوسط بما يتوافق والسياسة الكولونيالية البريطانية في هذه المنطقة. فكان على قناعة أن اليهود لن يتأخروا في توفير مساعدة جدية لبريطانيا في تمكينها في منطقة الشرق الأوسط، وأن إقامة دولة يهودية في هذه المنطقة سيساهم في ملئ الفراغ بعيد انهيار الدولة العثمانية.

وبادر صموئيل إلى طرح ورقة شرح فيها الخطوات العملية التي من الممكن أن تساهم في إقامة دولة يهودية في فلسطين. ومجمل هذه الورقة أن توضع فلسطين تحت الحماية البريطانية التي ستسهل على المنظمات الصهيونية المختلفة تنفيذ مشاريعها وفي مقدمتها شراء الأراضي وإقامة المستوطنات عليها، وبناء مؤسسات المجتمع اليهودي في فلسطين كالمدارس والمشاغل والمصانع وغيرها من المشاريع الحيوية، وبالتالي سيزداد عدد السكان اليهود في فلسطين، ما سيؤهلهم إلى نيل الاوتونوميا(أي الحكم الذاتي)، وكل ذلك تحت رعاية بريطانيا.

وتقدم صموئيل بهذه الورقة في مطلع العام ١٩١٥ إلى رئيس مجلس الوزراء اسكويث شارحا خطورة عدم سيطرة بريطانيا على فلسطين وما سيتركه هذا من مخاطر على المصالح البريطانية في الشرق الأوسط. ولكن اسكويث كان مترددا نوعا ما لأن صورة نهاية الحرب لم تكن بادية بوضوح أمام ناظريه. فلم تؤد الجهود إلى نتائج ايجابية. ولما أصبح لويد جورج رئيسا للوزراء افتتحت المفاوضات رسميا بين زعماء الصهيونيين وممثل معتمد من قبل الحكومة ألا وهو بلفور.[٣]

وفي الوقت ذاته، أي في مطلع العام ١٩١٥، طرح وزير خارجية بريطانيا آنذاك لويد جورج بفكرة إقامة دولة يهودية عازلة في فلسطين للحفاظ على المصالح البريطانية في مصر (أي قناة السويس وميناء الإسكندرية) وللحيلولة دون إمكانية وصول الفرنسيين الى مصر في محاولة منهم لإعادة مجد زائل بهزيمة نابليون بونابرت وحملته على مصر وبلاد الشام في نهاية القرن الثامن عشر.

وبالرغم من المفاوضات البطيئة بين بريطانيا والعرب من خلال مراسلات الشريف حسين . مكماهون إلا أن المحافل السياسية البريطانية كانت واقعة تحت تأثير القيادات الصهيونية سواء من يهود صهيونيين مقيمين في بريطانيا أم من خلال وزراء وسياسيين يهود بريطانيين أمثال هربرت صموئيل.

وبدأت طروحات صموئيل وغيره من السياسيين الإنكليز تتفاعل يوما بعد يوم خلال اشتداد المعارك الحربية في منطقة الشرق الأوسط، وازدادت المخاوف البريطانية من إمكانية نجاح المانيا من

لقد أدرك الفرنسيون تماما ما كانت تسعى إلى تحقيقه بريطانيا في تقربها من اليهود وفي طرح مشاريع لكسب التأييد اليهودي ليس فقط في بريطانيا بل في العالم أجمع تحقيقا لمصالحها الاستعمارية في منطقة الشرق الأوسط. لهذا سعت فرنسا إلى تقديم خدماتها لليهود من خلال تصريح أصدره كامبون وزير خارجية فرنسا في الرابع من حزيران ١٩١٧

خلال تحالفها مع الدولة العثمانية من بسط سيطرتها على مناطق استراتيجية في الشرق الأوسط، ولم تكن مخاوف بريطانيا من حليفتها فرنسا بأقل من تلك مع المانيا.

وتناولت الصحافة البريطانية مسألة الخطر الكامن في إمكانية نجاح المانيا في السيطرة على مفاتيح الشرق الأوسط وبالتالي إلى إقامة دولة عازلة في فلسطين تحت سيطرتها، ما سيعيق المشروع الكولونيالي البريطاني. وطرحت هذه الصحافة أهمية جعل الشعب اليهودي شريكا في تنفيذ مشروع السيطرة على فلسطين.[٤] وقامت جريدة "أوروبا الجديدة" بنشر مقال في ٢٦ نيسان ١٩١٧ نقلت من خلاله أهمية فلسطين في المشروع الاستراتيجي البريطاني. وأن اليهود هم لوحدهم من بين الشعوب الذين بإمكانهم الحفاظ على فلسطين كجزء من المصالح البريطانية.

إذن أجمعت كافة التيارات السياسية والصحافية البريطانية والصهيونية أن فلسطين ذات موقع استراتيجي مركزي ومهم في حماية المصالح البريطانية في منطقة الشرق الأوسط. وأن إقامة دولة يهودية ضمان كاف لإبعاد الأطماع الفرنسية عن منطقة مصر.

وجدير ذكره أن محاولات فرنسية لكسب ود اليهود والحركة الصهيونية كانت تسير في مسار سياسي قوي في الفترة ذاتها، أي خلال الحرب العالمية الأولى.

لقد أدرك الفرنسيون تماما ما كانت تسعى إلى تحقيقه بريطانيا في تقربها من اليهود وفي طرح مشاريع لكسب التأييد اليهودي ليس فقط في بريطانيا بل في العالم أجمع تحقيقا لمصالحها الاستعمارية في منطقة الشرق الأوسط. لهذا سعت فرنسا إلى تقديم خدماتها لليهود من خلال تصريح أصدره كامبون وزير خارجية فرنسا في الرابع من حزيران ١٩١٧ أرسله إلى سوكولوف (من قياديي الحركة الصهيونية ورئيس المنظمة الصهيونية العالمية بين ١٩٣١ و ١٩٣٥)، هذا أهم ما جاء فيها:

" ...إن الحكومة الفرنسية التي دخلت الحرب الحالية دفاعا عن شعب أعتُدي عليه ظلما، ولا تزال تواصل النضال لتأييد انتصار الحق على القوة ولا يسعها إلاّ أن تشعر بالعطف على قضيتكم التي يرتبط نجاحها بنجاح الحلفاء. وإنه ليسعدني أن أقدم لكم هذا التأكيد".[٥]

وجدير ذكره من جهة أخرى أن هذا التصريح الفرنسي لم ينشر على الملأ، إلا أن بلفور الذي تسلم نسخة منه لاحقا أسرع به إلى مجلس الوزراء البريطاني عارضا عليه خطورته، ما ضمن الإسراع في إصدار التصريح البريطاني الذي يحمل اسمه.

إذن، أصبح واضحا لدى المحافل الصهيونية ولدى أوساط صانعي القرار في الحكومة البريطانية أن تقاربا فكريا وعمليا حاصل بين الحكومة البريطانية وبين الحركة الصهيونية (التي مثلها وايزمان)، ولم يبق سوى الإعلان عن الخطوط العريضة للتحالف بين الطرفين. ولتعجيل الأمر بالاستفادة من التحولات السياسية والعسكرية الحاصلة على أرض الواقع في مختلف مراكز صنع القرار في العالم خلال الحرب العالمية الأولى، حصلت سلسلة من المفاوضات والمباحثات بين ممثلي الحركة الصهيونية والحكومة البريطانية. وقام حاييم وايزمان بتحريك عجلة المفاوضات بين الطرفين لكونه عارفا بخفايا السياسة الانكليزية من خلال خبرته اليومية بما كان يجري في محافل السياسيين الانكليز. وتمسك وايزمان بفكرة أن الحلفاء سينتصرون في الحرب، وأن بريطانيا ستخرج دولة عظمى كما دخلتها، بل إن قوتها ستزداد بفعل الانتصار الذي ستحققه. وطرح فكرة أن فلسطين ستكون من حصة بريطانيا دون غيرها من الدول المنتصرة، إشارة منه إلى فرنسا، وان فلسطين ذات موقع مهم للغاية بالنسبة لشبكة المشاريع البريطانية، وخاصة أنها - أي فلسطين - هي امتداد طبيعي لمصر، ما سيضمن المصالح البريطانية، لهذا لا بد من وجود حاجز طبيعي بين مصر وبين بلاد الشام. وقال وايزمان " وإذا أتيحت لنا الفرصة فإننا نستطيع أن ننقل مليون

يهودي إلى فلسطين خلال الخمسين أو الستين عاما القادمة وبذلك يتوفر لبريطانيا حاجز ويشكلون حارسا فعالا يحمي قناة السويس ويتوفر لنا وطن ".[٦] أما هربرت صموئيل فكان يحلم بإرسال ثلاثة ملايين يهودي لحماية قناة السويس للإنكليز.[٧]

كان واضحا أن عملية المفاوضات ستتمخض عن صفقة سياسية بين الحكومة البريطانية وبين المنظمة الصهيونية لما كان من توافق بين المصالح السياسية للطرفين في فلسطين وفي منطقة الشرق الأوسط برمتها.[٨]

وكثف وايزمان اتصالاته مع صانعي القرار في المحافل السياسية البريطانية، خاصة في الحكومة ومجلس العموم، مع كسب متواصل لمحرري كبريات الصحف البريطانية ذات النفوذ الواسع في الشارع البريطاني. وتمكن وايزمان من الالتقاء في الفترة الواقعة بين كانون الأول ١٩١٤ وموعد صدور تصريح بلفور عام ١٩١٧ مع كبار رجال السياسة الانكليز، منهم: هربرت صموئيل ولويد جورج (بصفته - أي جورج - وزيرا للخارجية ثم وزيرا للحرب فرئيسا للوزراء)[٩]، ومقابلاته الكثيرة مع بلفور. وكان هؤلاء الثلاثة ذوي تأثير كبير على مجرى السياسة في بريطانيا، وعرف وايزمان كيفية الاستفادة منهم، بكونه خبيرا في مجال الكيمياء وتكليفه بمهمة مستشار في هذا الأمر في وزارة الحربية البريطانية.

وطرحت عدة مشاريع لاستصدار تصريح بريطاني يتماشى مع الأماني والتطلعات الصهيونية ويضمن مصالح بريطانيا في فلسطين، إلى أن أُقرّ تصريح بلفور كصيغة نهائية. وكان بلفور وزير خارجية بريطانيا قد توجه بصفة شخصية إلى وايزمان طالبا منه أن يقدم تصريحا حول رغبات وتطلعات الحركة الصهيونية ليقوم بلفور بنفسه بتحويله إلى مجلس الوزراء.[١٠]

تقدم روتشيلد - احد أثرياء اليهود ومن رجالاتهم السياسيين - بمشروع في ١٨ حزيران ١٩١٧ ولكن الحكومة البريطانية وضعت مشروعا بديلا له عرف باسم مشروع "ملنر - امري " في تشرين الأول ١٩١٧. وأرسلته الحكومة البريطانية إلى قيادات الحركة الصهيونية لدراسته، وهذه أعادته إلى الحكومة البريطانية التي أجرت بعض التعديلات عليه لما يتناسب وملاحظات معينة طرحها زعماء اليهود، وكُلف بلفور بإصداره كرسالة موجهة إلى اللورد روتشيلد رئيس الاتحاد الصهيوني العالمي في ٢ تشرين الثاني عام ١٩١٧.

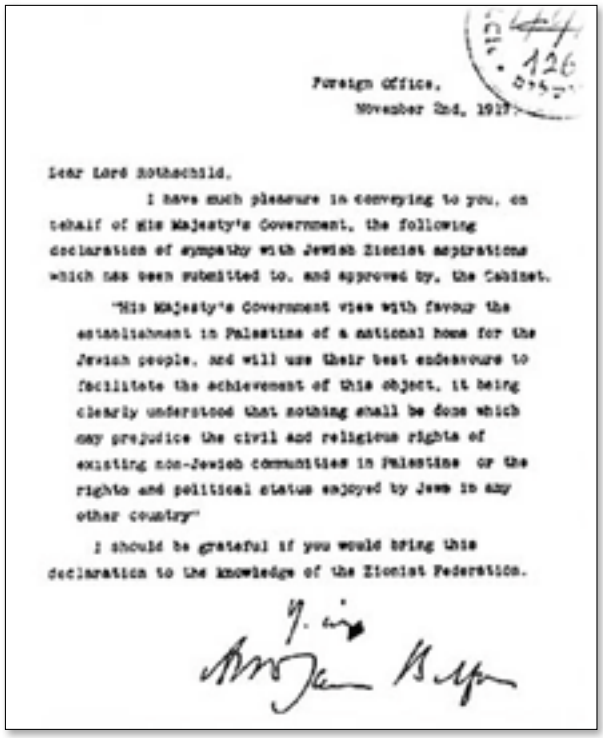

Foreign Office,
November 2nd, 1917.

Dear Lord Rothschild,

I have much pleasure in conveying to you, on behalf of His Majesty's Government, the following declaration of sympathy with Jewish Zionist aspirations which has been submitted to, and approved by, the Cabinet.

"His Majesty's Government view with favour the establishment in Palestine of a national home for the Jewish people, and will use their best endeavours to facilitate the achievement of this object, it being clearly understood that nothing shall be done which may prejudice the civil and religious rights of existing non-Jewish communities in Palestine or the rights and political status enjoyed by Jews in any other country"

I should be grateful if you would bring this declaration to the knowledge of the Zionist Federation.

صورة للوعد/ الوثيقة

• عوامل وأسباب إصدار تصريح بلفور

هنالك عدد من العوامل التي دفعت الحكومة البريطانية إلى إصدار هذا التصريح، منها:[١١]

١. **العامل الديني:** اعتقاد عدد كبير من الانكليز بأن بريطانيا البروتستانتية تساند فكرة أن الله قد وعد شعبه بأرض الميعاد - فلسطين. وأن دولة يهودية تخدم المصالح البريطانية في منطقة الشرق الأوسط ستشكل دعامة في صد تزايد القوة الاسلامية وتأثيرها في المنطقة.

٢. **العامل الجغرافي:** والقصد هنا أهمية المنطقة استراتيجيا بالنسبة للمخطط الكولونيالي البريطاني في منطقة الشرق الأوسط، من منطلق تفتيت مشروع الوحدة العربية الذي نادى به الشريف حسين والذي عبر عنه في مراسلاته مع هنري مكماهون المفوض البريطاني في مصر. وجعل فلسطين دولة حاجز أو دولة عازلة بين المصالح البريطانية في مصر وبين النفوذ الفرنسي في سورية ولبنان. ومن جهة أخرى تضمن بريطانيا حماية قناة السويس التي تشكل أهم معبر مائي في العالم، خاصة وأن هذا المعبر المائي يضمن سير المواصلات البحرية البريطانية بدون عوائق

خافت بريطانيا من تعمق التقارب بين تيارات صهيونية والحكومة الالمانية خلال الحرب، وأن تنجح الحكومة الالمانية في كسب ود اليهود الالمان ويهود الجاليات اليهودية في النمسا وبالتالي في مناطق أخرى إلى جانبها، أي إلى جانب المانيا، لهذا سعت إلى التعجيل في إصدار مثل هذا التصريح

من اوروبا إلى الهند عبر قناة السويس والبحر الأحمر ثم المحيط الهندي. فالدفاع عن قناة السويس يتم على أفضل وجه بإقامة شعب في فلسطين ملتصق ببريطانيا، وارسال اليهود إلى فلسطين تحت الرعاية البريطانية يضمن ذلك.[١٢]

٣. **التخلص من تزايد هجرة اليهود من اوروبا إلى بريطانيا:** ويتم ذلك بنقلهم إلى فلسطين كجزء غير معلن من مخطط تخفيف سكاني عن بريطانيا وفي نفس الوقت يخدم المشروع الكولونيالي البريطاني في الشرق الأوسط.

٤. **كسب تأييد الجالية اليهودية الاميركية لبريطانيا:** إصدار تصريح كهذا سيجذب الجالية اليهودية في اميركا إلى تأييد الخطوات البريطانية، وبالتالي إلى كسب الاميركان إلى جانب بريطانيا. وكانت الولايات المتحدة الاميركية قد دخلت الحرب إلى جانب الحلفاء في ربيع ١٩١٧، أي قبل إصدار التصريح، ولكن المفاوضات بخصوصه كانت معروفة في أوساط الجالية اليهودية في اميركا. لقد كان للدور الذي لعبته قيادات الجالية اليهودية في الولايات المتحدة اثر فعال على مسار الحرب وعلى مسيرة التقارب البريطاني ـ الصهيوني.

٥. **الخوف البريطاني من التقارب الالماني ـ الصهيوني:** خافت بريطانيا من تعمق التقارب بين تيارات صهيونية والحكومة الالمانية خلال الحرب، وأن تنجح الحكومة الالمانية في كسب ود اليهود الالمان ويهود الجاليات اليهودية في النمسا وبالتالي في مناطق أخرى إلى جانبها، أي إلى جانب المانيا، لهذا سعت إلى التعجيل في إصدار مثل هذا التصريح لسد أية ثغرة تساعد الحكومة الالمانية في تحقيق مبتغاها.

٦. **كسب ود وعطف الجاليات اليهودية في مختلف الدول** في اوروبا واميركا من منطلق أن تصريحاً سياسياً سيساعد في رفع القضية اليهودية إلى مستوى دولي ذي أهمية قصوى. وبالتالي سيندفع اليهود الأثرياء وأصحاب المصالح الاقتصادية إلى توفير الدعم المالي اللازم والضروري للمجهود الحربي.

ولكن يمكننا التركيز على وجود عاملين أساسيين دفعا بالحكومة البريطانية إلى إصدار هذا التصريح، وهما: العامل السياسي وهو أن تكسب بريطانيا العناصر الصهيونية القوية في المانيا والنمسا، لصرفها عن تأييد دول المركز. وأرادت بريطانيا أن تكسب ود يهود روسيا الذين قاموا بدور مهم في الثورة الشيوعية وقلب النظام القيصري، وتغريهم بالعمل على إبقاء روسيا في الحرب كي لا تبقى الجبهة الغربية من اوروبا أمام المانيا. ولكن بالنسبة لليهود فإن سقوط النظام القيصري أزاح عقبة كانت تعترض طريق تحقيق أماني اليهود الصهيونيين، وذلك لأن روسيا كانت تعتقد أن تسليم فلسطين لليهود سيدنس الأرض المقدسة، بكون الشعب الروسي متدين ومتمسك بالتعاليم المسيحية. إلا أن الصهيونيين شعروا بارتياح جراء سقوط الحكم القيصري وانسحاب روسيا من الحرب، ما كان من شأنه إحداث زيادة في حدّة التوتر بين بريطانيا وفرنسا حول فلسطين، وبذلك تزداد حاجة بريطانيا إلى نيل تأييد الصهيونية لمواجهة فرنسا التي أصبح موقفها أقوى من ذي قبل فور انسحاب روسيا، والقصد هنا ما له علاقة بالأماكن المقدسة.[١٣] وفي هذا السياق أخذت بريطانيا تشعر أن أطماع فرنسا في سورية قوية، فكان لا بد لها أن تقيم بينها وبين النفوذ الفرنسي القادم إلى المنطقة حاجزا يحمي قناة السويس من خطر تحقيق متجدد للحلم الفرنسي (الإشارة هنا إلى الحملة الفرنسية بقيادة نابليون على مصر وبلاد الشام في ١٧٩٨).[١٤] والعامل الاستعماري وهو أقوى العوامل،[١٥] وقد أتينا على شرح مركباته.

• نص تصريح بلفور

" عزيزي اللورد روتشيلد،

يسرني جدًا أن أُبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك التصريح

ولا بد من الإشارة إلى استعمال واضع التصريح لمصطلح جديد في القاموس السياسي في ذلك الوقت ألا وهو "الوطن القومي". فهذا المصطلح لا يعني بالضرورة مفهوم دولة.

التالي تعاطفا مع أماني اليهود الصهيونيين التي قُدّمت ووافق عليها مجلس الوزراء:

إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف والارتياح إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وسوف تبذل ما في وسعها لتيسير تحقيق هذا الهدف. وليكن معلوما بوضوح أنه لن يُعمل شيء من شأنه الإخلال بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين، أو الحقوق والأوضاع السياسية التي يتمتع بها اليهود في أية دولة أخرى.

إنّي أكون مدينًا لكم بالجميل لو قمتم بإبلاغ هذا التصريح إلى الاتحاد الصهيوني".

المخلص

أرثر جيمس بلفور

• تحليل النص وآثاره

أرسل التصريح كرسالة إلى اللورد ادموند دي روتشيلد[١٦] بصفة شخصية وليس بصفة مذكرة رسمية أو معاهدة ذات أسس قانونية تفرض التزاما. فاللورد روتشيلد ثري ومتبرع بسخاء للحركة الاستيطانية اليهودية في فلسطين ولدعم الجاليات اليهودية في العالم، من منطلقات غير صهيونية في أساسها. فلماذا لم يوجه التصريح إلى وايزمان الذي عمل جاهدا في المحافل السياسية البريطانية من اجل استصداره؟ هناك توجه تحليلي يميل إلى أن توجيهه إلى روتشيلد بالذات لكسب ود وعطف اكبر قطاع من الشرائح اليهودية، وأن عدم توجيهه إلى وايزمان لإزالة تهمة تأثير الصهيونية عنه.[١٧]

ويتضمن التصريح جملة تشير إلى وجود سابق لمفاوضات جادة بين الحركة الصهيونية وبين الحكومة البريطانية، معنى ذلك أن الحكومة البريطانية تقر بوجود علاقات مع ممثلي الحركة الصهيونية " ...الذي عُرِضَ على الوزارة فأقرته..." وهذا يعني أيضا تعهد الحكومة كجسم تمثيلي ورسمي للقيام بتنفيذ كافة قراراتها وتوصياتها.

ومن جهة أخرى فإن الحكومة بإصدارها هذا التصريح فإنها ستبذل قصارى جهودها في سبيل تسهيل عملية إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين. وهنا جدير ذكره، أن اقتراح التصريح الذي قدمته القيادة الصهيونية احتوى على عبارة مغايرة لما تضمنه لاحقا تصريح بلفور. فالعبارة التي أرادها الصهيونيون هي:

" Palestine as a national home for the Jewish people"

أي جعل كل فلسطين وطنا قوميا للشعب اليهودي. ولكن ما ورد ذكره في تصريح بلفور هو:

" A national home for the Jewish people in Palestine"

أي عدم تحديد مساحة الوطن القومي المزمع إقامته في فلسطين، وذلك من منطلق عدم تجاوب بعض السياسيين الانكليز مع كافة الطروحات الصهيونية، وبالتالي الخوف البريطاني من عدم تحقيق الأطماع الاستعمارية البريطانية الكاملة على فلسطين. والتصريح لم يقل بصريح العبارة أن بريطانيا ستحول فلسطين إلى دولة يهودية، وكذلك لم يُحدّد التصريح حدود فلسطين لكون بريطانيا في مرحلة احتلال أراض من تركيا في خضم معارك الحرب العالمية الأولى.[١٨]

ولا بد من الإشارة إلى استعمال واضع التصريح لمصطلح جديد في القاموس السياسي في ذلك الوقت ألا وهو "الوطن القومي". فهذا المصطلح لا يعني بالضرورة مفهوم دولة. قد يعني مفهوما غامضا ولكنه يجذب ود وعطف اليهود في كافة أنحاء العالم، ويحفظ خط رجعة للحكومة الانكليزية في تعاملها السياسي مستقبلا. ولكن الصهيونيين أصروا في سعيهم على ضرورة تحقيق مبدأ "اعتبار فلسطين وطنًا قوميًا للشعب اليهودي"،[١٩] ما يحقق منطلقا مركزيا في المستقبل لبناء مكونات الدولة اليهودية في فلسطين.

ومن التمعن بعمق في مضمون هذا التصريح يتبين لنا الخط السياسي الاستعماري الذي سارت عليه الحكومة البريطانية معتمدة الغموض والتلاعب بالكلمات والتعابير واللجوء إلى اعتماد خط الرجعة لكون بريطانيا دولة استعمارية لها مصالح مع مجموعات وشعوب أخرى في المنطقة وخارجها.

وهناك من يدعي أن مفهوم الوطن القومي معناه كيان سياسي له مكونات دولة للشعب اليهودي. وأدركت الحركة الصهيونية أن هذا المفهوم يخدمها كثيرا لكونه واسع التفسير والتعليل ولكنه في نهاية المطاف يعني الدولة بكافة مركباتها.

وهناك من يعتبر مصطلح "وطن قومي" نوعا من التنازل من الداعين إلى إقامة دولة يهودية بمشروع تمهيدي لدولة.[٢٠]

وتعامل التصريح مع الشعب العربي الفلسطيني المقيم على أرضه منذ فجر التاريخ بكونه طوائف غير يهودية. أي جعل الأغلبية الساحقة من أهالي فلسطين عبارة عن طوائف وذلك من منطلق تطبيق الفكر التمزيقي والتفتيتي للشعب الفلسطيني الواحد، والتعامل معه كطوائف لا تملك حقوقا سياسية سوى الحقوق الدينية والمدنية فقط. وهذا كان اعترافاً من قبل الحكومة البريطانية أن اليهود الذين لم تتجاوز نسبتهم ٣٪ في فلسطين عشية صدور التصريح يشكلون أغلبية، بينما الأغلبية أصبحت أقلية مبنية من طوائف دينية (طوائف غير يهودية).واعتبرتهم ـ أي العرب المسلمين والمسيحيين الذين شكلوا نسيج الشعب العربي الفلسطيني الواحد ـ مواطنين من درجة ثانية في الوطن القومي اليهودي.[٢١] وكان على الحكومة البريطانية والحركة الصهيونية أن تضمن على الأقل الحقوق المشار إليها، ولكنها بالطبع لم تفعل ذلك، كما بينت سيرورة الأحداث حتى العام ١٩٤٨.

بهذه العبارة المقصودة من قبل الساسة الانكليز هدفت الحكومة والحركة الصهيونية إلى نزع الصفة الشرعية عن مكونات الشعب الفلسطيني القومية والتاريخية المرتبطة بفلسطين الوطن جغرافيا وتاريخيا. واعتبر التصريح الطوائف غير اليهودية "مقيمة في فلسطين" أي أنها تعيش بصفة مؤقتة حسب مفهوم الإقامة. وهذه أيضا عملية نزع الارتباط التاريخي لعيش الإنسان الفلسطيني في أرضه ووطنه. وهذا التوجه ينسجم مع التوجه الكولونيالي البريطاني في التعامل مع الشعب الأصلاني في فلسطين في هذه الحالة حصرا.

ولم يتغاضَ التصريح عن ضمان الحقوق السياسية والحقوقية (أي القانونية) لليهود في أية دولة أخرى. معنى ذلك أن اليهود الذين لن يرغبوا في الهجرة إلى الوطن القومي اليهودي المزمع إقامته في فلسطين بإمكانهم متابعة مسيرة حياتهم كالمعتاد في أية دولة يعيشون فيها دون أن يخسروا شيئا من حقوقهم القانونية أو أن تتضرر مكانتهم السياسية. وهذه العبارة تشير أيضا إلى إمكان حصول اليهودي على جنسية في الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وأن يحتفظ في الوقت ذاته بجنسيته في بلده الأصلي. وهنا أيضا تكمن بواطن خبيثة في التفكير الصهيوني إلى الحفاظ على نفوذ ومصالح الجماعات اليهودية الثرية أو ذات النفوذ والسطوة في دول أخرى، ما قد يساعد الدولة الفتية على النهوض اقتصاديا وسياسيا في المستقبل. والتصريح قد منح لكل الشعب اليهودي أينما تواجد، والعبارة هذه ما هي إلا لتخفيف حدة معارضة بعض الأوساط اليهودية الصهيونية للفكرة، ولكن ككل فالمشروع كان مقبولا على معظم الأوساط والمحافل الصهيونية.[٢٢]

ومن التمعن بعمق في مضمون هذا التصريح يتبين لنا الخط السياسي الاستعماري الذي سارت عليه الحكومة البريطانية معتمدة الغموض والتلاعب بالكلمات والتعابير واللجوء إلى اعتماد خط الرجعة لكون بريطانيا دولة استعمارية لها مصالح مع مجموعات وشعوب أخرى في المنطقة وخارجها.[٢٣] ومهما كان من تأويلات بالنسبة لمضمون التصريح فهناك من يعتبره "ماغنا كارتا" في السياسة الصهيونية.[٢٤]

• تدويل تصريح بلفور

سعت الحركة الصهيونية متمثلة بعدد بارز من شخصياتها وعلى رأسهم وايزمان[٢٥] إلى دعم الخطوة الثانية في تحقيق المشروع الصهيوني ـ البريطاني في إقامة الدولة اليهودية في فلسطين،

بواسطة تعيين هربرت صموئيل أول مندوب سام بريطاني على فلسطين وذلك في تموز ١٩٢٠. وصرح وايزمان علانية أنه كان وراء هذا التعيين بقوله : " لم يكن أحد سعيدا بهذا التعيين مثلي، لقد وضعناه ـ إشارة إلى صموئيل ـ في هذا المنصب لأنه صموئيلنا، إنه نتاج يهوديتنا " .

أما الخطوة الثالثة في هذا السياق فكانت نقل تصريح بلفور من محافل بريطانيا السياسية إلى المحافل الدولية من خلال إقرار عصبة الأمم لصك الانتداب، ليتضمن كافة فقرات التصريح.[٢٦] وبالفعل أقر مجلس عصبة الأمم في ٢٤ تموز ١٩٢٢ صك الانتداب البريطاني على فلسطين، متضمنا مواد تصريح بلفور الرئيسية. ومنها ما يلي:

• **المادة الثانية :** " تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن وضع البلاد في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي وفقا لما جاء بيانه في ديباجة هذا الصك، وترقية مؤسسات الحكم الذاتي وتكون مسؤولة أيضا عن صيانة الحقوق الدينية والمدنية لجميع سكان فلسطين بغض النظر عن الجنس والدين " .

• المادة الرابعة: " يُعترف بوكالة يهودية ملائمة كهيئة عمومية لإسداء المشورة إلى إدارة فلسطين والتعاون معها في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الأمور التي قد تؤثر في إنشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين ولتساعد وتشترك في ترقية البلاد على أن يكون ذلك خاضعا دوما لمراقبة الإدارة " .

• **المادة السادسة:** " على إدارة فلسطين، مع ضمان عدم إلحاق الضرر بحقوق ووضع فئات الأهالي الأخرى، أن تُسهّل هجرة اليهود في أحوال ملائمة وأن تشجع بالتعاون مع الوكالة اليهودية المُشار إليها في المادة الرابعة تجميع اليهود في الأراضي الأميرية والأراضي الموات غير المطلوبة للمقاصد العمومية " .

• **المادة الثانية والعشرون:** " تكون الانكليزية والعربية والعبرية اللغات الرسمية لفلسطين وكل عبارة أو كتابة بالعربية وردت على طوابع أو عملة تستعمل في فلسطين يجب أن تكرر بالعبرية، وكل عبارة أو كتابة بالعبرية يجب أن تكرر بالعربية " .

وهكذا انتقل تصريح بلفور من الإطار البريطاني إلى إطار أوسع باعتراف عالمي ممثلا بصك الانتداب الصادر عن مجلس العصبة كوثيقة رسمية يجب على الدولة المنتدبة ـ بريطانيا في هذه الحالة ـ أن تقوم بتنفيذها بحذافيرها.

هذا التحول وفر لبريطانيا مساحة أوسع من التحرك لصالح تطبيق بنود وفقرات مشروع إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وذلك من خلال توفير كافة مقومات الدولة من مؤسسات تمثيلية وخدمية وبالتالي إلى توظيف يهود في وظائف رئيسية وذات صفة صنع قرار، ما مهد الطريق نحو تثبيت وجود وعمل مؤسسات الحكم اليهودية المستقلة عشية إعلان اليهود عن إقامة دولة اسرائيل.

***

كان واضحا للعرب عامة والفلسطينيين خاصة أن وراء تصريح بلفور يكمن مشروع أكبر سيؤدي إلى تهميشهم والتضييق عليهم ومنعهم من تحقيق مشروع عربي بإقامة دولة عربية مستقلة في فلسطين. لهذا كان نضال وكفاح شعب فلسطين في فترة الانتداب البريطاني للحيلولة دون إقامة دولة يهودية في فلسطين، إلا أن هذا النضال لم يؤت ثماره المرجوة بالنسبة للعرب والفلسطينيين. إذ نجحت المحافل السياسية البريطانية وكذلك اليهودية في إلغاء دور التصريح وصك الانتداب تاريخيا بواسطة إصدار قرار تقسيم فلسطين والإعلان رسميا عن إقامة دولة يهودية على مساحة شاسعة من فلسطين بالرغم من أنّ عدد اليهود في فلسطين أقل بكثير من عدد العرب في عام ١٩٤٧، عام صدور قرار التقسيم.

هوامش

١ حول تعامل الدولة العثمانية مع الحركة الصهيونية وطروحات إقامة دولة في فلسطين، نحيل القارئ إلى كتاب حسان علي الحلاّق. موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، ١٨٩٧ – ١٩٠٩. دار الهدى، القدس، ١٩٩٠.

٢ اميل توما. جذور القضية الفلسطينية. القدس، ١٩٧٦. ص ٧٥. كان دافيد بن غوريون الذي بدأ نجمه بالصعود في هذه المرحلة من مؤيدي الموالاة لدول المركز أي لالمانيا وتركيا معتبرا أن التحالف مع الحلفاء يشكل ضررا على يهود فلسطين وتكوين الاستيطان فيها.

٣ جورج انطونيوس. يقظة العرب، تاريخ الحركة القومية العربية. ترجمة ناصر الدين الأسد واحسان عباس. دار العلم للملايين، بيروت،١٩٧٨. ص ٣٦٦.

٤ اقتراح تقدم به هربرت سايدبوتام محرر الشؤون العسكرية في جريدة الغارديان إلى وزارة الخارجية البريطانية في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٥.

٥ عبد الفتاح العويسي. جذور القضية الفلسطينية، ١٧٩٩- ١٩٢٢. دار الحسن للطباعة والنشر، الخليل. فلسطين، ١٩٩٢. ص ١٧٨.

٦ عن العويسي.م.س. ص ١٨٠. اميل توما. م.س. ص ٨٠.

٧ تيسير جبارة. تاريخ فلسطين. دار الشروق، عمّان، ١٩٩٨. ص ٩٣.

٨ بهجت صبري. فلسطين خلال الحرب العالمية الأولى وما بعدها: ١٩١٤- ١٩٢٠. جمعية الدراسات العربية، القدس، ١٩٨٢. ص ١٠١.

٩ "كان لويد جورج يرى فائدة العامل الصهيوني في ضم فلسطين للامبراطورية البريطانية بشكل من الأشكال. وفي سبيل ذلك كان مستعدا أن يمنح الأماكن المقدسة لليهود حماية لها من فرنسا اللاأدرية الملحدة". أ. توما. م.س. ص ٨١.

١٠ راجع كتاب عبد الوهاب الكيالي. تاريخ فلسطين الحديث. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥. ص ١١٢.

١١ يستعرض عز الدين فودة عوامل كثيرة وعديدة حول صدور تصريح بلفور منها السياسي والديني والاقتصادي والاجتماعي كذلك. راجع مقالته بعنوان:"الصراع الدولي حول فلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر – غرض صدور وعد بلفور"، في مجلة البحوث والدراسات العربية، العدد الأول، آذار ١٩٦٩.

١٢ إ. توما. م.س. نقلا عن جريدة جلاسكو هيرالد بتاريخ ٣ تشرين الثاني ١٩١٧. أي بعد يوم واحد من صدور تصريح بلفور.

١٣ عمر عبد العزيز عمر. دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر. دار النهضة العربية، بيروت. لبنان، ١٩٩٠. ص ٦٢٢.

١٤ المصدر السابق، ص ٦٢٤.

١٥ ج. انطونيوس.م.س. ص ٣٦٨. ويعتقد انطونيوس، وهو من موظفي بريطانيا في فلسطين وممن واكبوا مسار الصراع بين الفلسطينيين واليهود في مرحلة حاسمة خلال العشرينيات والثلاثينيات، "أن الحكومة البريطانية لو لم تتفق مع الصهيونيين لجربت بكل وسيلة تستطيعها أن تعقد صفقات أخرى تضمن استرجاع فلسطين لبريطانيا العظمى حصة خالصة لها من أسلاب الحرب". ص ٣٦٨.

١٦ تمت سلسلة من المراسلات بين روتشيلد وبين بلفور قبل وبعد صدور التصريح موجودة في مكاتب وزارة الخارجية البريطانية تحت رقم: F.O. 371/3038/143082.

١٧ يطرح الباحث محمود حسن منسى في كتابه: تصريح بلفور الصادر عن دار الفكر العربي بالقاهرة، ١٩٧٠ وجهة نظر تميل إلى تبني الحكومة البريطانية للقضية اليهودية ضمن استثمارها لتحقيق مكاسب في مشروعها الاستعماري.

18 Arthur Goldschmidt Jr. A Concise History of the Middle East. Westview – Oxford, 7 th edition, 2002. p. 266.

١٩ انطونيوس. م.س. ص ٣٧٤. ويضيف انطونيوس أن الحكومة البريطانية لم تكن تريد ان تلتزم بأكثر من سياسة عطف محتسبة المستقبل وما يترتب عنه.

٢٠ يشعياهو فريدمان. شئلات ارتس يسرائيل بين ١٩١٤-١٩١٨. (قضية فلسطين بين ١٩١٤ – ١٩١٨). إصدار ماغنيس، الجامعة العبرية بالقدس، ١٩٨٧. ص ص ٣٣٥.

21 Goldcshmidt. Op.cit. p. 267.

٢٢ يشعياهو فريدمان. م.س. ص ٣٥٨.

٢٣ زاهية قدورة. تاريخ العرب الحديث. دار النهضة العربية، بيروت . لبنان، ١٩٨٥. ص ١٩٦.

24 Arthur Goldschmidt Jr. Op.cit. p. 266.

٢٥ بالنسبة للصهيونيين وفي طليعتهم وايزمان، كانوا ينتظرون في أن تعلن "الدولة اليهودية"، لا أن يُنظر " بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين"، لذلك كان رد وايزمان على بلفور بقوله:"لم يكن هذا ما توقعت". لكن هذا التصريح بصيغته النهائية لم يحبط آمال الصهيونيين، إذ أنه على حد قول وايزمان، "فلسطين يهودية، كما أن انجلترا انجليزية". نقلا عن زاهية قدورة. م.س. ص ١٩٧.

٢٦ يدحض وديع البستاني في كتابه: الانتداب الفلسطيني، باطل ومحال الصادر عن المطبعة الاميركانية ببيروت، ١٩٣٦ شرعية الانتداب على فلسطين بكونه مخالفا للمواثيق الدولية الشرعية.